الوحدة الوطنية والديمقراطية....

دلالات التجربة وطريق المستقبل الذكرى ٥٢ لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨

الدكتور منير عيسى

من سيجهد بعدنا... ؟ من سيبني دولة القانون والنظام فوق تراب الوطن، غيرنا ؟ استبشرت جماهير شعبنا خيرا بالتغيير الذي حصل في صبيحة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨، بازاحة الملكية واقامة النظام الجمهوري، ومنذ ذلك التاريخ، عاش شعبنا العراقي، ديمقراطيات غريبة عجيبة، لم يشهد لها التاريخ مثيلا، ديمقراطيات غريبة الاطوار: فمن ديمقراطية السحل بالحبال، الى ديمقراطية القطارات الامريكية، الى ديمقراطية ابادة الشعب الكردي، الى ديمقراطية كواتم الصوت، والقادسية الثانية، وام المعارك، وتسميم وتجفيف الاهوار، الى ديمقراطية الفوضى الخلاقة، الى ديمقراطية المحاصصة الطائفية و القتل على الهوية، الى ديمقراطية الفساد المالي و السياسي، الى ديمقراطية نهب ممتلكات الدولة والمال العام، الى...، الى...، الى ...

وهذا بالتأكيد ما لم يتمنه الضباط الاحرار لشعبهم، حينما تصدوا لمهمة تغيير و اسقاط النظام الملكي عام ١٩٥٨

ولم يكن ايضا، مطابقا لمفهوم التغيير الحقيقي، الذي اراده الشعب العراقي وأحزابه الوطنية في السنوات التي تلت ذلك...

قد لا نبالغ اذا ما قلنا، لو عرف الضباط الاحرار مساء الثالث عشر من تموز عام ١٩٥٨ بأن التغيير الذي كانوا يريدون الاقدام عليه في صبيحة اليوم التالي، سيقود الى كل هذه الماسي، وان العراق سيغرق في لجج من الدماء لأعادوا التفكير مائة مرة بما كان في نياتهم القيام به، ولفكروا بأبقاء الملكية و العمل على اقامة حكومة وطنية بالاساليب الديمقراطية:

بالدستور، بالحريات العامة، بأحترام القانون، وحقوق الانسان الاساسية، وللمقارنة نقول لقد تأخر العراق عن الانظمة العربية التي بقت ملكية الى يومنا هذا من ناحية: الاستقرار السياسي، ورسم سياسات خارجية متوازنة، واطلاق الحريات النسبية لشعوبها، والتي تعيش برفاه قياسا بما عاناه و يعانيه الشعب العراقي، من قمع واضطهاد و تجويع، وغياب الامن والامان والسيادة الوطنية في حين تتمتع تلك الشعوب، في ظل انظمتها الملكية،

بخيراتها من، نفط و معادن و ثروات، تبني بها مجتمعاتها.. و بعيدا عن:

الشعارات الفضفاضة، والجمل الرنانة، والمشاريع التأريخية، والخطابات الحماسية الفارغة، والمزايدات، والوعود الكاذبة بحياة افضل، والدجل، واستغلال عواطف ومشاعر الجماهير البسيطة، لاهداف مصلحية وانتهازية، والتهريج الاعلامي لبرامج العدالة والمساواة والوحدة، البرامج التي بقت وتبقى حبرا على ورق يعبر بها الطامحون الى المناصب، لكراسي السلطة والتسلط، برامج التنظيمات الشمولية، ونعني بها هنا، التنظيمات السياسية البديلة التي ارتأت لنفسها ان تلعب الدور الابوي على الجماهير، فارضة لونها ونتاج تجربتها، كقيد وشرط للثورة، منحية ومبعدة باقي الالوان، وجل التجارب الاخرى، ناسين ومتناسين، ان قوس قزح، اطياف تبدأ من الارض، وفيها تنتهي.. وبناءا على ما سبق، و نتيجة لحكم الديكتاتوريات، و الاحزاب الشمولية، وبكل أسى وأسف، نقول، ها نحن اليوم نرجع الى المربع الاول، غير مستفيدين ، لا من السنوات التي مرت، ولا من الخبرات التي تكدست، ولا من همجية القتل اليومي، لا نعير اهتماما يذكر، لانين الشعب التواق لرغيف الخبز والاستقرار والكرامة والسيادة الوطنية والوطن الحر والسعادة وهنا ينطبق علينا المثل العراقي القائل: "لا حظت برجيلها، ولا خذت سيد علي"

كثيرة هي الدماء التي سالت على ضفاف الرافدين منذ تموز ١٩٥٨الى اليوم.. كثيرة هي المآسي التي مر بها الشعب والوطن.. فهل نتعظ بما حصل لنا ونسعى جاهدين لاقامة دولة القانون والنظام في بلدنا؟

ام نكتفي برفع الشعارات وتسطير العبارات والمشاريع والبرامج ، لغرض الاستهلاك، وليس للتطبيق..؟

هل سنبقى ننشد دولة القانون والعدالة، وبذات الوقت نمارس سلوكا، من الناحية العملية، ينقض كل ما ننشد...؟

هل نمد الايادي سواعد، لكي نغرس نبتة الوعي على الضفاف..؟

و كيف نرتضي لانفسنا، أن نكون بيادق شطرنج، يحركها الاخرون، في ارض الوطن، لاهداف غير وطنية؟

ومتى سنمنح للجماهير فسحة وفضاءا، لكي يسنح لها ان تعيد تقييم ودراسة الحقبة التأريخية الماضية، لتستشرف مواطئ اقدامها مستقبلا،خاصة وان صورة العالم ومفاهيمه، قد تغيرت اليوم، تغيرا عاصفا عما كانت عليه، قبل اثنين وخمسين عاما، ام هل سنكتفي بالوقوف كل عام، دقيقة حداد على ارواح الشهداء؟ شهداء الحروب، والمقابر الجماعية، والقمع، وقصر النهاية، ونقرة السلمان، ومجازر حلبجة، و شهداء تموز و ٨ شباط

وفي مقدمتهم الزعيم البطل عبد الكريم قاسم، واصحابه البررة، الذين راحو ضحية احلامهم الجميلة لبناء عراق جديد.. متناسين أن الانتقال من بنية اجتماعية اقتصادية، الى اخرى مختلفة نوعيا، تحتاج الى مهندس ماهر وحازم، يستطيع وضع الاساس السليم في الارض الهشة، وهنا لا تكفي الخبرة العسكرية وحدها، خبرة الثكنات فقط، بل كان ينبغي الحصول على خبرة السياسي المحنك والمجرب، المتشبع بحكمة الماضي ودروس الحاضر، والذي يمتلك روح البناء ويضطلع بدور المؤسس للدولة والمجتمع الجديد، حيث يتحول الزعيم، الى عامل يضمن الوحدة الوطنية والوفاق الاجتماعي والسياسي، في بلد متعدد القوميات والاثنيات والاديان، كالعراق:المتميز بكل شئ، بموقعه، بتأريخه الحافل بالصراعات، بثرواته الهائلة، و بتآمر الاخرين عليه نتيجة ذلك، مخافة أن يتحول الى بلد قوي ومستقر، يقلب حسابات الاخرين راسا على عقب.. لذا كان على الزعيم وضع الاسس الجديدة المطلوبة للتغيير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي فكر به رجال الثورة، لكي لا يبقى التغيير مجرد اماني و خطابات جميلة، يسحر بها القائد مستمعيه.. لكن للاسف، لم توضع تلك الاسس بشكل صحيح.. فوصلنا الى ما نحن فيه اليوم، حيث دفع الشعب والوطن، ثمنا باهضا لذلك، خلال الـ ٥٢ سنة الماضية، نتيجة الدكتاتوريات المتعاقبة، والانفراد بالحكم، والتفريط بمصالح الوطن والشعب، والحروب، والفساد بشتى انواعه.. نعم، كان على الزعيم، ان يعمل على سن دستور دائم للبلاد، والغاء حالة الطوارئ، وأجراء انتخابات برلمانية ورئاسية، لوضع مقدمات الدولة العصرية، وتعزيز مؤسسات المجتمع المدني، واحترام حقوق الانسان، والاهتمام ببلورة مشروع وطني عراقي، يقوم على الاعتراف بالتعددية القومية والدينية والحزبية، يلف كل الشعب حوله، وكان بوسع مشروع كهذا، ان يقطع الطريق على قوى الردة، و كان من المفترض ايضا استكمال المشاريع الاجتماعية والاقتصادية، التي بشرت بها الثورة، وتطهير الجيش واجهزة الدولة من الاعداء، هذا جانب، لكن من جانب اخر، ونحن بصدد تحليل اسباب الاخفاقات، لايمكن تناسي الظروف الشائكة التي احاطت بالزعيم، وشراسة القوى المحلية والدولية، التي تضررت مصالحها بالثورة، او انها لم تفهمها، اضافة الى ذلك نقول ان موهبة السياسي، تتلخص بتجاوز الانحسارات بأقل الخسائر الممكنة للوصول بالبلد الى شاطئ الامان، لكن للاسف، هذا لم يتحقق ايضا. .تلكم هي الواجبات الاساسية، والتي كان على الزعيم القيام بها، في ذلك الوقت، لتحقيق اهدافه..

اما في يومنا هذا، و للاجابة عن السؤال الازلي، مالعمل؟.. نقول:

1- المطلوب من الجميع اليوم، تجاوز عقلية الاحتراب والعداء بين القوى السياسية، وتبني فكر جديد يقوم على الحوار، والشفافية، والمصارحة، والمتابعة، والتجدد مع الحياة، والانفتاح على الثقافات والشعوب، وحرية التعبير، والتعددية، وتبني الحلول الوسط، وقبول ارادة الشعب، والتخلي عن خداع الذات بامتلاك الحقيقة واحتكارها، ويجب اخضاع كل فعل وكل نشاط سياسي، لاي حزب كان . للقضية الاكبر التي اسمها العراق.

2- ينبغي ان تمتلك الاحزاب السياسية، مصداقية على ارض الواقع، هذه المصداقية التي تتأتى من المنجزات الفعلية، وليس عبر، الخداع والتضليل، والاعلام الكاذب والمزايدات والتشويه والاحقاد والتشكيك بالاخرين، والشحن الطائفي والعنصري، كما كانت تفعل الديكتاتوريات السابقة، ينبغي عليها تبني روح المرونة والتسامح والعمل المشترك، والابتعاد عن الانتقام والتامر.

3- ينبغي للاحزاب السياسية، ان تمتلك الحرص على العراق، ووحدة اراضيه، وسيادته الوطنية، يجب عليها ان تعمل لاخراج العراق من البند السابع لميثاق الامم المتحدة، الذي ينتهي بموجبه تفويض الامم المتحدة الممنوح للقوات المتعددة الجنسية، تمهيدا لتمتع العراق بسيادته الكاملة، وكذلك يجب ان تسعى لالغاء القروض التي منحت للنظام السابق من قبل بعض الدول، لتمويل حروبه الاجرامية، ويجب على الاحزاب ان تتفق على برنامج للعمل الوطني المشترك لبناء الوطن واستعادة ثقة الشعب بها، وعليها ان تبتعد عن المحسوبية والمنسوبية، وتبتعد عن توظيف، الدين و القومية، لاهداف حزبية وسياسية وانتخابية ضيقة، وكذلك ينبغي على الاحزاب ان تبتعد عن الركض وراء المصالح الشخصية والولاءات المحلية والاجنبية، على حساب مصالح الشعب.

٤- ليس من حق هذه الاحزاب، التصرف بأموال وثروات الشعب، بناءا على مصالحها الخاصة وارتباطاتها، ليس من حقها تحويل، الاقتصاد الوطني، والملكية العامة، الى، متجر كبير، للرشاوي، والعمولات، والفساد المالي.

5- الولاء المطلق لهذه الاحزاب يجب ان يكون للعراق والعراقيين، وليس للاجانب ومصالحهم.

6- ينبغي توفير الية تضمن حقوق الفرد والقوميات والاديان والطوائف والاحزاب، ليتعايش الجميع بسلام .

7- يجب زرع الثقة بين الجميع وتوظيف الخصوصية العراقية، للتطور والازدهار كمثال يحتذى للشعوب، بعد توفير الامن والامان وفرص العمل والخدمات، ومحاربة الفساد المالي والسياسي.

8- اعتماد معايير النزاهة، والكفاءة، والخبرة، والايمان بالمشروع الوطني العراقي، و الولاء للشعب والوطن، كشرط اساسي لتعيين الملاكات القيادية في اجهزة الدولة ومؤسساتها الجديدة.

هذه هي مهماتنا اليوم، وبتنفيذها نكون اوفياء لذكرى ثورة تموز ورجالها..

وهكذا، فعند الاحتفال بذكرى ثورة تموز، لا يجب فقط، ان نكتفي بالوقوف كل عام دقيقة حداد على ارواح الشهداء، أو أن نبكي دهرا على ما ضاع من مكاسب ثورة ضاعت، عويل عمر على اطلال ١٤ تموز ١٩٥٨ بل يجب ان نتشرف بتنفيذ هذه المهمات، في هذه المرحلة الخطيرة التي يمر بها الشعب والوطن وخلاف ذلك نقول من سيجهد بعدنا؟ من سيبني دولة القانون والنظام، فوق تراب الوطن، غيرنا؟.

واحات

عدنان الحسني

annajar44@yahoo.com

حر الصيف

كنت اتساءل دوماً عن سر طالما بحث عنه ولم استطع يوماً ان اجد جواب تساؤلي وكانت السنون تمضي بي كما لو انها دولاب يدور ويدور... ها انذا دلفت على عتبة نصف العمر او اقله او ازوده فالله اعلم سبحانه... ولم يخطر ببالي حتى بعض جواب تساؤلي حتى جاءتني الايام تحمل معها كل تلك الاسرار وبين جنباتها اجوبة حينما اطلعت عليها رأيتها بديهية لم احتج منها سوى الى التركيز وإدراك الواقع... اذ ان ادراك الواقع والعيش فيه ضمن مسافاته المحددة يعطي المرء الانطباع الصحيح عما تؤول إليه الامور بكل اشكالاتها وتناقضاتها.. كنت حينما ادخل إلمرسم واهيء اللوحة واضع الزيت عليها واروح في الموضوع فكراً ويداً واستحضر كل التقنيات اليدوية وتلامس فرشاتي ذلك القماش المهيأ سلفاً من التحضير وما شاكل... تصبح الحالة حالة تفاعلية بيني وبين اللوحة ويرافق تلك الممارسة بعض مشاكل منها بسيطة تمر مر السحاب ومنها ما يصعب بعض الاحيان تلك الفعالية التي ان تهيأت لها الظروف الموضوعية... فلن تكون هناك عقبات لابل سيكون العمل الابداعي المثمر من اجل ظهور افضل واحسن النتائج المرجوة من خلال استكمال العمل الابداعي... تلك الظروف التي يجب ان تتهيأ من عدة عوامل مجتمعة ومتفرقة تلك الظروف لابد للعمل الابداعي من ان يكون حاضراً معها وتكون هي حاضرة معه كي يصل الناتج الى افضل واحسن حالاته... كنت اتساءل دوماً لم تلك المناطق من العالم والتي هي على درجة من حرارة الطقس عالية ولا تطاق ترى لم ليس في هذه المناطق المحددة ليس هناك من ابداعات فنية من رسم وماشاكل وبالتحديد فن الرسم او مايطلق عليه بعض الاحيان فن التصوير بالكامرة بل التصوير بالفرشاة... تبين ان السبب الرئيسي في ذلك هو عدم توفر تلك الظروف المساعدة في تحسين حالة الناتج الفني... وعلى درجة من الاهمية لظهور ذلك المنتج هو تلك الظروف الواجب توفرها..

دروس التربية الفنية والرياضية في المدارس الابتدائية

زهور الجواهري

تعتبر مادتي التربية الفنية والرياضية من المواد المهمة والمحببة عند الاطفال في المدارس الابتدائية والتي تشدهم الى الدراسة وتحببهم بها لآن الطفل ومنذ سنواته يبدأ بالتعلم فيمسك القلم ويبدأ بكتابة الارقام ويلون الاشكال وينظر الى محلات الاطفال من خلال اشكالها ورسومها فتبقى كل هذه الاشياء عالقة في ذاكرته النقية والصافية والتي يحملها معه الى مقاعد الدراسة..

اما مادة التربية الرياضية فهي ايضا محببة لديه لآن الطفل بطبيعته الفطرية يحب المسابقات واللعب سواء كانت كرة القدم او السلة او الالعاب والنشاطات الرياضية الاخرى فهي تضيف حيوية ومرحا للطلاب اضافة الى كشف المواهب في سن مبكر لغرض رعايتها وصقلها لكي تكون خير ممثل للعراق في المحافل الرياضية الدولية، ناهيك عن تفعيل درجة العلاقة بين الاسرة التعليمية والطلاب ، وكذلك فهي من الناحية الصحية والعقلية مفيدة فالرياضة تنشط العقول وتزيل الشحوم وتقوي الاعصاب وفوئدها لاتعد ولا تحصى وانها ليست في مجال اختصاصنا الا اننا نلاحظ عدم الاهتمام بهذين الدرسين في المرحلة الابتدائية الى الحد الذي يوحي ويعزز هذه الفكرة لدى الطلبة بعدم اهمية هذه الدروس لآنهم على طول السنة اما ان تكون شاغر بدون معلمة او استخدام الفترة المخصصة لهذين الدرسين الى مواد اخرى بحجة التأخير في انهاء المواد التعليمية..

ان كلية الفنون الجميلة وكلية التربية تخرج المئات من طلابها وتنفق الاموال الكثيرة من ميزانية الدولة لغرض تعليمهم وتأهليهم لكي يكونوا مدرسين لهذه المواد وينقلوا ما تعلموه الى الطلبة وفي كافة المراحل ويبحثوا عن المواهب الفنية والرياضية من بين الطلبة لغرض رعايتها والاهتمام بها..

ان تفكير ادارات المدارس الابتدائية بعدم اهمية هذه المواد التعليمية المهمة فانهم يشاركون في طمر المواهب وبث روح اليأس لدى الطلبة في اوقات مبكرة من عمرهم فتخيلوا بلدا لايوجد فيه فنان او رياضي كيف سيكون وضعه ومن يرفع علمه في المسابقات الدولية، وتخيلوا المهندس والطبيب وطلاب الاختصاصات الاخرى وهم لايعرفون الرسم ولا يعرفون درجات الالوان وما هي الالوان الحارة وما هي الالوان الباردة او الحيادية فكيف سينجزون اعمالهم وكيف يبدعون...وهذا كله بسبب زرع هذه الفكرة من بداية اعمارهم .نحث وزارة التربية الى الاهتمام بهذه المواد التعليمية في المراحل الابتدائية والتأكيد على ادارات المدارس بعدم اهمالها او تهميشها من خلال الندوات التثقيفية وكذلك لابد من اشراك وزارة الثقافة والفنانين وذوي الاختصاص فيها لغرض القضاء على هذه الظاهرة المهمة والحساسة لما لها من اهمية كبيرة في تنشئة الجيل الجديد ...

مشروع تغيير العالم

أ. د. سيار الجميل

كان المفكر المصرى أنور عبدالملك أول من أطلق مفهوم "تغيير العالم" فى ثقافتنا العربية فى كتابه الذى حمل هذا "العنوان" والذى صدر عن دار المعرفة بالكويت عام ١٩٨٥ دون أن يلتفت إليه أحد ويا للأسف الشديد، ثمة أسئلة خطيرة لابد أن يسألها أى مفكر أو مختص باختلاف الرؤية عن جمهرة السياسيين حيال ما يخبئه المستقبل لدولنا ومجتمعاتنا التى لم تؤسس حتى يومنا هذا طريقها نحو المستقبل، لا على مستوى المبادئ والدساتير، ولا على مستوى المؤسسات والتحولات! ثمة أسئلة تنتظر أجوبة وافية عليها بلا أية التواءات أو منافذ هروب، خصوصا ونحن فى عصر تتسابق فيه المصالح الدولية، وتتزايد فيه تحديات التغيير، وتختلط فيه الرؤى، وتتباين فيه الاتجاهات، وتزيف فيه المعلومات من خلال الإعلاميات والاتصالات المتنوعة والأجهزة الخفية المتسعة والمضادة! ولقد تأخرنا فى اجتياز الزمن والتخضرم بين قرنين، مع بقاء أجترار مفاهيم القرن العشرين التى عاشت مجتمعاتنا على هوسها منذ أكثر من خمسين سنة!

وغدت مستهلكة لا قيمة لها أبدا فى عالم يشهد متغيرات سريعة جدا، وهى تنتج تراكم مشكلات ومعضلات، لم تتم أية استجابات لها حتى يومنا هذا بتأسيس تاريخ جديد، كما أن زعماء المنطقة لم يجدوا حتى اليوم أية علاجات جذرية واقية وأية حلول عملية مصدرها أولئك الذين يفكرون بالمصير التاريخى الذى ينتظرنا جميعا!

انتحار الإرادات وإعادة إنتاج المستهلكات

ربما يتنادى الجميع بأن الحلول جاهزة، ولا حاجة للمجتمعات فى طرح أية بدائل! ولكن ثمة من يطرح بأن تتلاقى كل الاتجاهات والتيارات مع بعضها البعض من دون رصد مسبق كى تنبثق إرادة جماعية موحدة بعد مخاضات قرن مضى بكل انتصاراته وهزائمه، بل وكانت منطلقا للعديد من الحركات الفكرية والسياسية الساخنة، وكانت مواطنها بؤرا راسخة لعدد لا يحصى من التجمعات والمنتديات والأحزاب السياسية والنخب الثقافية سواء الليبرالية أم الراديكالية والتى لم تنجح ويالّلأسف إلا فى ترسيخ الحكومات العسكرية والأنظمة الشمولية والدكتاتوريات المنغلقة تحت مسميات وشعارات لا يحصى عددها.. وإنها لم تزل تعيد إنتاج نفسها بنفس الحماس والحيوية والقوة، ولكن ليس باتجاه الأنشطة المتمدنة الذكية، بل ضمن اتجاهات متخلفة أو أصولية مكفهرة وتيارات ماضوية متخلفة وما ورائية بعيدا عن كل قيم التقدم والحرية، كما أنها لم تبق أبدا صامدة بوجه التحديات القاسية التى مرت عليها ولم تتجاوزها مطلقا على غرار بقية المجتمعات الأخرى "وخصوصا مجتمعات المعسكر الاشتراكى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن العشرين" التى وجدت فى مشروع "تغيير العالم" الفرصة الذهبية من أجل تبديل الأنظمة، ليس السياسية فقط، بل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على أقل تقدير.

هكذا كانت مشروعات دولنا ومجتمعاتنا، قابلة لنحر الإرادات العملية والإنتاجية والإبداعية ومستعدة دوما لإعادة إنتاج المستهلكات وبقايا الموروثات العقيمة التى لا نفع فيها اليوم مطلقا كما يحدث اليوم فى مجتمعات عربية وإسلامية والتى كان لابد لها من عمليات جراحية تحديثية وإصلاحية على غرار البيروسترويكا والغلاسنوست "=الانفتاح والشفافية وإعادة الإصلاح"! وكان على الحكومات العربية المعاصرة أن تدرك سرعة التحولات وقوتها فى العالم كله، كان عليها أن تفعل شيئا ما بخصوص ممارسة أية أنواع من التغييرات من أجل ما حصل فى العالم أجمع وفى كل الاتجاهات ولكن ذلك لم يحدث – مع الأسف –، بل حصل العكس وساد استشراء التطرف وتكريس التجزئة ومحاربة الديمقراطية وانتهاك حقوق الإنسان وتخصيب النزعة الماورائية والإنشائيات الإعلامية والخطابات الفضفاضة الفارغة إلخ.

التحديات والصعاب لا نواجهها إلا بالانقسامات والتناقضات!! لابد أن تطرح عدة تساؤلات مهمة فى سياق الطرح فى أعلاه:

هل ستكون هذه الأقوال كسابقاتها من التصريحات العربية؟ هل أنها ستكون مجرد اجتماع رأى للصفوة العليا من المفكرين العرب الذين يعلنون ما يريدون قوله من دون أى دراسة ولا تفعيل ولا توظيف ولا متابعة؟ هل ستكون وجهات نظر تلك الصفوة معبرة عما تريده الأمة أم أنها ستزيد من هوة التناقضات بين ما يطمح إليه المفكرون والحكماء العقلانيون وبين ما يعلنه الشارع السياسى الذى لا يعرف المسكين ماذا يفعل إلا الرجوع والاستكانة بعد هيجانه وقد غدا صوته مبحوحا ومجروحا؟ وهل تطمح الصفوة أن تجد حلولا سريعة وإعلانية وشعاراتية وتكتيكية أم أنها تسعى لأن تؤسس ثوابت استراتيجية من أجل تاريخ جديد لكل المنطقة؟ وعليه، هل تقبل حكوماتنا كلها بأى دور للمؤسسات المدنية والأهلية لكى تفعل ما تريد فى إطار القانون؟ أعتقد أن الوقت قد فات اليوم، إذ غدت التدخلات الخارجية "والأمريكية خصوصا" سافرة بحيث لا يمكن لأى حكومة فى العالم اليوم إلا ورعاية مصالحها الحيوية إزاء هذا القادم الجديد الذى افتتح القرن الواحد والعشرين بكل قوة واندفاع، ومن المحزن جدا أن هناك من نبه إلى مثل هذه التحديات قبل حلولها ومنذ سنوات خلت ومن بين صفوتنا العربية المفكرة.. ولكن باللأسف لم تلتفت الحكومات العربية ولا مجتمعاتنا إليه وإيجاد حلول عملية ونوعية للحياة المشتركة، ففات القطار سريعا على الجميع وعبر ولن يتوقف عند جميع المحطات.. فأين سيصطدم.. لا أحد يعلم!

تاريخ جديد للعالم بدأ العام ٢٠٠٩!

كل هذا وذاك يعلمنا بما لا يقبل مجالا للشك أن تاريخا جديدا قد بدأ فعلا – فى نظرى – عام ٢٠٠٩ أى أثر الاقتراب من نهاية العقد الأول من هذا القرن الجديد، إذ نلحظ اختلافا مباشرا عما ألفناه فى القرن العشرين من التجارب والأحداث والتفاعلات والآثار.. إننى أجد أن إرادة الدولة غدت أقوى بكثير من تطلعات المجتمع الذى لم يزل يعتقد بأن صوته له تأثيره وفاعلياته فى الحياة السياسية، وهو على خطأ كبير فى التقدير، خصوصا بعد مرور القرن العشرين الذى عاش مختلف البدائل التاريخية بولادة وظهور وقوة وموت العديد من الإيديولوجيات والعقائد السياسية التى كنستها اليوم عمليات "تغيير العالم"، لقد هيمن هذا المشروع على هذا العالم، ولم يعد يسمع فيه إلا صوته ولا يعمل إلا من خلال ما يفرضه على الآخرين من التوجهات والأساليب والمناهج والخطط والعمليات.

لقد بدا واضحا أن كل ما تعبت عليه ومن شأنه دول ومنظومات وتكوينات سياسية وعسكرية وأجيال ممثلة بأحزاب ومنظمات وكتل وجيوش وجماعات ونقابات ونخب وهيئات.. فضلا عما تربت عليه الشعوب من قيم ومبادئ وطنية وقومية ودينية وأعراف وظيفية ونقابية ومهنية.. ناهيكم عن أعراف وقوانين ومؤسسات ومنظومات وأجهزة.. كلها لا نفع أبدا فيها، كما أنها لا قيمة لها ولا تتمتع بأى نوع من السيادة والكبرياء وشرف المواطنة.. إلخ.. لأنها غدت جزءا من تقاليد الماضى التى يعتبرها هذا العصر بمثابة موروثات مركبة وتالفة لا دور لها ولا نفع منها اليوم فى ظل تغيير العالم المعاصر، وغدت مجموعة القيم والأفكار السياسية والعقائدية لها من الخصوصية التى لا يرى العولميون الجدد أن الشعوب بحاجة إليها.. باستثناء العادات والتقاليد الاجتماعية والفلكلورية فهى جديرة بالانتشار إذا ما رغبت فيها شعوب أخرى.

سطوة التاريخ وسقوط المستقبل

إننى أدع نفسى كل يوم لوحدها قليلا ليس من أجل مفاجأة السماء روحيا فقط، بل من أجل التفكير فى الأرض ومصيرها تاريخيا! أفكر قليلا لأدع قرائى الأعزاء يفكرون مليا خصوصا عندما نسترجع ما كنا قد تربينا عليه نحن فى القرن العشرين من القيم والثوابت والمبادئ والأصول.. أفكر اليوم كم أصبحت كلها هشة قابلة للانكسار والتفتت فى أية لحظة من زمن جائر وعلى أيدينا! كيف كانت فكرة الوطن والسيادة وعلم البلاد والنشيد الوطنى وجيش البلاد وحرمة الشبر من الأرض والمقدسات والشهادة..

أذكر معلمنا كيف كان يقول والوردة البيضاء معلقة على صدره: الوطن كالثوب الأبيض الناصع، علينا أن نحافظ على نظافته كيلا تصيبه أى بقعة حمراء أو لطخة سوداء لا يمكن أن تمحى عنه أبدا، فنكون قد سجلنا نقطة مشوهة فى تاريخنا أمام كل العالم وستحاسبنا الأجيال على ذلك! كنا نسأله ويجيبنا ونحن من اليافعين كيف نحافظ على أسوار الوطن وأسراره من العاديات؟ وكيف نكون أذكياء ويقظين ومنتبهين،

فلابد أن نختبئ قليلا عندما تهب علينا العواصف الهوجاء.. وعلينا أن نتحاشى شراسة الخناجر والسكاكين كيلا نتضرج بدمائنا ونفتقد هيبتنا فى العالمين! وعلينا أن نتعامل مع الآخرين بكل مهارة وحذق فى الأسواق الفاحمة المزدحمة من أجل النفع العام والصالح العام بعيدا عن دكاكين البارود فى ساحات الهرج والمرج، ثم نخرج من تلك الأماكن والثوب أبيض كالقرطاس! وإذا وجدنا أنفسنا والأوحال من حولنا؟ فلابد أن نحذر ونرفع الثوب الناصع إلى الأعلى ونجد طريقا ملتويا قصيرا بعيدا عن كل الأقذار، أما لو تعرض الثوب للتمزق ووهج الحرائق.. فلابد من اتقاء النار بأى ثمن كان.. فمن سيقى حرماتنا وأجسادنا وجلودنا..؟! رحم الله معلمنا كم كان شريفا يقدس الوطن والصالح العام! وأخيرا، متى يدرك زعماؤنا بأن مشروع تغيير العالم لا يمكنهم أبدا مناطحته ومقاومته بمثل أوضاعهم المفككة الراهنة، فلابد من الشروع بمشروعات تغيير وتحولات وإصلاحات لكل مؤسساتهم وأجهزتهم! فهل سيحدث شىء... إننى أشك فى ذلك.

نشرت في مجلة روز اليوسف المصرية ٢٧ فبراير ٢٠١٠ .